السنة السادسة عشرة

وفيها فُتحت المدائنُ، واستولى المسلمون على مدينة كسرى وإيوانه وذخائره، وقيل: إن ذلك في سنة أربع عشرة، والأول أصحُّ، ذكره علماءُ التواريخ بأيام الفرس، وحكى أبو بكر الخطيب في تاريخه طرفاً منه[١]، وقالوا بأن المدائن على جانبَي دجلة شرقاً وغرباً، ودجلة بينهما، فالمدائنُ الشرقية تُسمّى العَتيقة، وبها إيوانُ كسرى، وهي للخواص من أصحابه وأساورته، وكان هو ينزلُ الإيوان، وهو القصر الأبيض، ويعرف بأَسْبانَبْر[٢]. واختلفوا في مَن بناه؟ فقال قوم: لا يُعلم مَن بناه، وقال قوم: بناه سابور ذو الأكتافِ.

وأما المدينةُ الغربية فتُسمَّى بَهُرَسِير، وهي للتجار والعوام لا يُخالطون الأساورة.

وكان على دجلة من طرفي المدينتين جِسران، فإذا جاء الليلُ قفلوا كلَّ جسر، وجعلوا عليه الحرس، فلا يصلُ إلى المدينتين أحدٌ لا من ناحية البصرة ولا من ناحية الشمال.

وكان الإسكندرُ قد طاف الدنيا وبنى المدائن: سَمَرْقَنْد وهراة وما ذكرناه في ترجمته، وجاء إلى مكان المدائن فاستطابه، فبنى المدائن وسماها الرومية، وأثرُها باقٍ إلى اليوم، لأنه لما بنى الإسكندرية وجاء إلى العراق بنى المدائن وشبّهها بها، ويُقال إنه تُوفي بها أو ببابل، وحمل إلى الإسكندرية، وقد ذكرناه في ترجمته[٣].

وإنما سُمِّيت المدائن لكثرة من بنى بها من الملوك والأكاسرة.

وقال الجوهري: المدائن: جمعُ مدينةٍ، وأصلُها من مَدن بالمكان: إذا أقام به. قال: والإيوان: الصُّفَّةُ العظيمةُ كالأَزَج، ومنه إيوان كسرى[٤].

---

(١) انظر تاريخ بغداد ١/ ١٢٨.

(٢) في تاريخ بغداد، والمنتظم ٤/ ٢٠٣: وتسمى المدينة الشرقية العتيقة، وفيها القصر الأبيض القديم الذي لا يُدرى مَن بناه، ويتصل بها المدينة التي كانت الملوك تنزلها، وفيها الإيوان، وتعرف بأسبانبر.

(٣) سلف في أخبار الأمم الماضية.

(٤) الصحاح (مدن، أون)، ومن قوله: وقيل إن ذلك في سنة أربع عشرة... إلى هنا ليس في (أ) و(خ).

وأقام سعد ﷺ بالكوفة يَشنُّ الغارات بعد وَقعة القادسية، وله مع الفرس وقائع إلى أن دخلت هذه السنة، فكتب عمر بن الخطاب رضوان الله عليه إلى سعد ﷺ: سِرْ إلى المدائن، واجعل مع نساء المسلمين وعِيالهم مَن يحرسهم من العدو، واجعل لهم نَصيباً من المغنم، ففعل سعد ﷺ ذلك، وسار إلى بابل، فلقي جُموعاً من الفُرس فهزمهم، وكان مسيره من الكوفة في شوال، ونزل ببابل، وجاء إلى كُوثى في المكان الذي حبس فيه الخليل عليه السلام، فصلّى فيه، وقدَّم بين يديه زَهرة بن الحويّة إلى بَهُرَسِير، فَبَيْنَا زَهرة يسير إذ لَقيه شيرزاد بالصُّلح، وكان شيرزاد نائبَ يَزدجرد فبعث به إلى سعد، وجاء سعد فنزل على بَهُرَسِير وقد خندقت الفُرس، ونصبوا المناجيق وآلة القتال[1].

ولما سار سعدٌ من الكوفة إلى بَهُرَسير أغار مابين الفُرات ودجلة، فأصاب مئةَ ألف دِهقان أو أكَّار، فاستشار المسلمين فيهم فقالوا: شاوِرْ أميرَ المؤمنين، فكتب إلى عمر بسببهم فكتب إليه: إن البلاد بأهلها، وإن لم يُعينوا عليكم فدعوهم وشأنَهم، ومَن هرب منهم إلى الفُرس فلا عهدَ له. فأطلقهم سعدٌ، وجاء فنزل على بَهُرَسير، وقد تحصَّنت الفُرسُ منه، فنصب عليهم سعدٌ عشرين منجنيقاً والعرّاداتِ، وقاتلهم أشدَّ قتالٍ، ومنعهم الميرة، وشُغِل عنهم أهلُ المدينة الشرقية بما هم فيه من الخوف، حتى أكلوا لحوم الكلاب والقِطاط.

وقُتل زَهرةُ بن الحَوِيَّة بعد أن قتل شيرزاد[2]، وقيل إنه لم يُقتل وإنما قتل شيرزاد. فبينما هم كذلك إذ بعث إليهم يَزدَجرد رسولاً، فأَشرف عليهم وقال: الملكُ يقول لكم: هل لكم في الصُّلح، على أنّ لنا ما يَلينا من دجلة إلى المشرق والجبل، ولكم ما يليكم من دجلة إلى الحجاز؟ فبدر الناسَ أبو مُفَزِّر الأسودُ بن قطبة، فأجابه بكلمةٍ أنطقه الله بها، لم يدر ما قال ولم يفهمها الناسُ، فنزل الرسول إلى البلد، فقيل للأسودِ: ماقلتَ؟ فقال: والله ما أدري، وإنما هي كلماتٌ أجراها الله على لساني.

وشرع أهلَ بهُرَسير يَقطعون دِجلة في السفن إلى المدينةِ الشرقيةِ، واستأمنَ رجلٌ

(١) من وقوله: وأقام سعد بالكوفة.. إلى هنا ليس في (ك).

(٢) في الطبري ٦/٤ ، والمنتظم ٢٠٤/٤ : فضرب بسيفه شهربراز من أهل إصطخر فقتله.

من أهل بَهُرَسير، فخرج إلى سعدٍ فقال: ماالذي يَمنعكم من دخول بَهُرَسير؟ فوالله ما بقي فيها أحد، فقال له سعد: فما السببُ في كونهم هربوا؟ قال: لأن الملكَ لمَّا بعث إليكم في الصلح، أجبتموه بما أوجب ذلك، قال: فما الذي قُلنا؟ قال: قال إنسان منكم: لا صُلح بيننا وبينكم حتى نَأكلَ عسلَ أفريذين بأتْرُجٍّ كُوثى، فقال الملك: إن الملائكة لتتكلَّم على ألسنتهم، فيقال إن أفريذين مدينة قاطع نهر جيحون[1].

ثم تَسوّر المسلمون الأسوار، ونزلوا وفتحوا الأبواب، ووجدوا فيها من الأموال والذخائر والأطعمة ما لايُحصى، وكان دُخولُهم في الليلة العاشرة من صَفَر، فلما لاح لهم أبيضُ كسرى كبَّروا وقالوا: هذا ما وعدَ الله ورسولُه، وأقاموا أيّاماً من صفر لا يقدرون على العُبور إلى المدينةِ الشرقية، وكانت الفُرس قد أخذت السفن والمعابر إلى ما يليهم، فكانت من البطائح إلى تكريت.

حديث فتح مدينة كسرى

قال هشام: وقال سعد: مَن يَدلُّنا على مَخاضة؟ فجاء قومٌ من النَّبط فدلُّوهم على مخائض، فتوقَّف سعدٌ في ذلك ورأى الإبقاء على المسلمين، فرأى سعدٌ في المنام أنّ خُيولَ المسلمين اقتحمت دجلة وعَبرتْ، فأصبح عازماً على العُبور، فقال للناس: رأيتُ كذا وكذا وإني عازِمٌ على قطع هذا البحر، وجاءه علجٌ فقال: إنْ أقمتَ ثلاثاً ذهب يَزْدَجِرْدُ بكلِّ شيء في المدائن، فقوي عزمُه على العبور، وأصبح المدُّ في دجلة زائداً على الحدِّ، فقال سعد: مَن يتقدَّم فيَحمي لنا الفِراضَ حتى يَتلاحقَ به الناسُ؛ لئلا يَمنعوهم من الخروج؟ فقال عاصم بن عمرو: أنا، وخاضَ أوَّلَ الناسِ، وانتدب معه ستّ مئةٍ من أهل النَّجدات، فجاؤوا إلى الفِراضِ، وعليها جماعةٌ من الفُرس فقتلوهم وانهزم الباقون، فحينئذٍ قال سعد للناس: اقتحموا، فقدَّموا الرِّماك[2]، ثم الفُحول بعدها، فيقال إن الخيل أحجَمت، فصاح سعد: إنْ كُنتِ خيلَ الله فاعبُري، وإن كنتِ خيلَ سعد فلا تَعبُري، فاقتحمت الماء وإن دجلة ليَقذف بالزَّبَد من شِدَّة الزيادة، وجعل

(١) قوله: فيقال إن أفريدين مدينة قاطع نهر جيحون، ليس في (أ) و(خ)، ولم نتبينه.

(٢) جمع رَمَكة، وهي أنثى البراذين.

الناسُ يُحادث بعضُهم بعضاً كما يتحدَّثون على الطُّرق، وكان الفرسُ يَعوم براكبه، فربَّما لم يَبلغ الماءُ إلى الحزام، وربما أعيا الفرسُ فتَظهر له تَلْعَةٌ يَستريحُ إليها، وكان سلمان يسايرُ سعداً ويتحادثان، وسعدٌ يقول: حسبُنا الله ونعم الوكيل، حتى خرجوا ولم يفقدوا شيئاً، إلا قَدَحاً من خشب، فأخذه رجلٌ فجاء به إلى العسكرِ، فعرفه صاحبُه فأخذه.

فلما رأت الفُرس ذلك قالوا: إنما نُقاتل الإنس لا الشياطين والجن، فهربوا وتركوا جمهور أموالهم، وكان يوم عبورهم يُدعى يوم الجراثيم، ومعناه: أنه لا يَعيا أحدٌ من المسلمين إلا ظهرت له جُرثومةٌ يستريح عليها. والجرثومةُ: الأصلُ، كان يَظهر لهم في دجلة جراثيم، وهي الرمل يجتمع في أماكن مثل الجزيرة.

ورأى عظماءُ الفرس أمراً عظيماً لم يكن في حسابهم، فأعجلوهم عن أموالِهم، فدخلوا القصرَ الأبيض فتحصَّنوا به، وطلبوا الأمانَ على نُفوسهم، فأمَّنوهم، وهرب يزْدَجِرْد بعياله إلى حُلْوان، وترك أموالَه وذخائرَه، ولم يَحمل إلا شيئاً يسيراً، واستولى المسلمون على الباقي.

ونزل سعد القصرَ الأبيض واتَّخذه مُصلًّى، وقرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾﴾[الدخان: ٢٥] ولم يغيِّر سعدٌ ما كان في الإيوان من التماثيل، وصلى فيه الجمعة في أول ربيع الأوَّل، وهي أوَّل جُمعةٍ جُمِعت بالعراق في سنة ست عشرة. وأتمَّ سعد الصلاة لأنه كان على نيّة الإقامة.

وقال الخطيب: ولما دخل عليٌّ عليه السلام الإيوان في مسيره إلى صِفّين أمر بالتماثيل فقُطعت رؤوسُها ثم صلَّى فيه[1].

وقال الخطيب: ولما بنى المنصورُ بغداد عزم على نقض الإيوان ليستعين في بنائها، ثم انصرف عن ذلك[2]. وسنذكر القصة في سنة خمسٍ وأربعين ومئة عند بناء بغداد.

---

(١) تاريخ بغداد ٧/ ٣ ، والمنتظم ٤/ ٢٠٧ .

(٢) تاريخ بغداد ١/ ١٣٠ .

قال الخطيب في إسناده عن أبي بكر[١] بن عيّاش[٢] قال: لما خرج عليٌّ عليه السلام إلى صفين؛ مرَّ بخراب المدائن، فتَمثَّل رجلٌ من أصحابه فقال:

جَرت الرِّياحُ على مَحلِّ ديارهم فكأنَّهم كانوا على مِيعادِ
فإذا النَّعيمُ وكلُّ ما يُلهى به يوماً يصيرُ إلى بِلىً ونَفاد

من أبيات، فقال علي: لا تَقلْ هكذا ولكن قُل ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾[الدخان: ٢٥-٢٨] إن هؤلاء كانوا وارِثين فأصبحوا مَوروثين، وإنهم استحلُّوا الحرم، فحَلَّت بهم النِّقم، ولا تكونوا أمثالَهم[٣].

ذكر ما وُجد في بيوت أموال كسرى

وُجد ثلاثةُ آلاف ألفِ ألفِ دينار ـ ثلاث مرات ـ ومن الجواهر والتُّحفِ والألطاف[٤] والأمتعة أكثر من قيمة ذلك، وأما من الأسلحة والبقر والغنم والأطعمة وما أعدُّوا للحصار فشيءٌ لا يحصى.

وروى سيف بن عمر، عن الأعمش، عن حبيب بن صُهبان قال: دخلْنا المدائن، فأتينا على قِبابٍ تُركيّة مملوءةٍ سلالاً مختومة بالرّصاص، فما حسبناها إلا طعاماً، فإذا آنيةُ الذّهب والفضّة، فقسمت بعدُ بين الناس، فلقد رأيتُ الرجل يطوف ويقول: مَن معه بيضاء بصفراء؟ وأَتينا على كافورٍ كثيرٍ، فما حَسِبناه إلا مِلحاً، فجعلنا نَعجِنُ به حتى وجدنا مرارتَه في الخُبز[٥].

ذكر بساط الإيوان[٦]

قال سيف: ووجدوا بساط الإيوان، وكان ستين ذراعاً في مثلها، فيه طرقٌ كالأنهار، وقصورٌ كالدُّرِّ، ووسطه كالأرض المزروعة مثل زهر الربيع، ويُقال له:

---

(١) من قوله: وقال الخطيب ولما دخل علي... إلى هنا ليس في (خ) و(أ).
(٢) في (أ) و(خ): عن ابن عباس، وهو خطأ.
(٣) تاريخ بغداد ١/ ١٣٢-١٣٣ ، والبيتان للأسود بن يعفر في المفضليات ٢١٧ .
(٤) في (أ) و(خ): واللطائف.
(٥) تاريخ الطبري ٤/ ١٧ ، والمنتظم ٤/ ٢٠٨ .
(٦) هذا العنوان ليس في (أ) و(خ).

البَهار، وكانوا يُعِدُّونه للشتاء، إذا ذهبت الرياحينُ والأزهار فرشوه وجلسوا عليه للشُّرب، فكأنهم في البساتين والرِّياض، وقيل: إن العرب كانت تسمّيه القِطف، وكان مُوشّىً بأنواع الجواهر والفُصوص، ولونه مثلُ الذهب[١].

ذكر ستر الإيوان

قال هشام: كان طولُه خمسَ مئة ذِراعٍ في مثلها، فيه من الجواهر واليواقيت مالا يُحدُّ ولا يُقَوَّمُ.

وذكر الخطيب في تاريخه عن أبي العباس المبرّد أن ستر الإيوان أحرقه المسلمون لما فتحوا المدائن، فوجدوا فيه أو أخرجوا منه ألفَ ألفِ مثقال ذهباً، فبيع المثقالُ بعشرة دراهم، فبلغ ذلك عشرة آلاف ألفِ دِرهم[٢].

قال سيف: وتبعهم زهرة بن الحَويّة إلى جسر النَّهروان، فازدحموا عليه، فوقع بَغْل في الماء، فتكالبوا عليه، فقال زهرة: إن لهذا البغل شأناً، فتكاثروا عليه وأخذوه، وإذا عليه حِليةُ كسرى، ووشاحُه وسلاحُه ودِرعه، فبعثوا به إلى عمر[٣].

ذكر قسم الغنائم

قال علماء السير: كانوا ستين ألفاً، فقسم سعدٌ بينهم الغنائم، فأصاب الفارس اثني عشر ألفاً بعد الخُمس، وقسم دور المدائن بين الناس، وبعث إلى العيال فأنزلَهم إياها.

قال سيف: وجمع سعد الخُمس، وأدخل فيه كلَّ شيء أراد أن يَعجب به عمر، من ثياب كسرى وحليته وسيفه ونحوه، وأحضر بِساطَ كسرى فلم يُقَوَّم، فقال للناس: هل لكم أن تطيبَ نُفوسُنا عن أربعةِ أخماسه، ونبعثه إلى عمر فيَضعه حيث يرى؟ قالوا: نعم، فبعث به إليه، فلما قدم على عمر هاله وقال: أشيروا عليَّ فيه، فقالوا: قد طابت نُفوسُ المسلمين لك به، فَرَ رأيَك فيه، إلا ما كان من علي فإنه قال: يا أمير المؤمنين،

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٢ ، والمنتظم ٤/ ٢١٠ .

(٢) أخرجه الخطيب ١/ ١٣١ وعنه ابن الجوزي في المنتظم ٤/ ٢١٠ من رواية المبرد عن القاسم بن سهل النوشجاني.

(٣) تاريخ الطبري ٤/ ١٧ ، والمنتظم ٤/ ٢٠٧ .

الأمرُ على ما قالوا، ولم يبق إلا التَّروية، إنك إنْ تَقبلْه اليوم لم تَعدَم في غدٍ من يستحقُّ به ما ليس له، فقال: صدقتَني، فقطعه بينهم.

وروى سيف عن عبد الملك بن عمير قال: لما قَدم البساطُ على عمر جمع الناسَ واستشارهم فيه، فمن مُشيرٍ بقَبْضه، وآخر مفوّض إليه[١]، فقام علي عليه السلام فقال: لِمَ تجعلُ علمَك جَهلاً، ويقينَك شكًّا! إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيتَ فأَمضيتَ، أو لبستَ فأبليت، أو أكلتَ فأفنيت، فقال: صدقتَني، فقطعه وقسمه بين الناس، فأصاب علياً قطعةٌ، فباعها بعشرين ألفاً، وما هي بأجود تلك القِطع.

وقال سيف: قال سعدٌ للمسلمين: خُصُّوا أمير المؤمنين بحلية كسرى، فبعثوا بها إلى عمر، ومعها سَفَطٌ فيه جواهر ليس لها قيمةٌ، فلما رآها عمر عجب وقال: إنَّ قوماً أدوا إلينا هذا لذَوو أمانةٍ، فقال له علي: عَفَفْتَ فعفَّت رعيَّتُك[٢].

قال: ولما حضرت حِليةُ كسرى بين يديه قال عمر لمُحَلِّم، وكان أجسمَ أهل المدينة: قم فالبس ثيابَ كسرى وتاجَه، ففعل، فرأى الناسُ أمراً عظيماً، فقال له: اخطر، فخَطَر في ثيابِ كسرى، فقال له عمر: إيه، أعرابيٌّ يَلبَس ثيابَ كسرى وسلاحه! انزع لا أمَّ لك، فنزعها، ويقال: إن عمر أعاد الجميع إلى سعد وقال: لم أشهد معكم فكيف آخذُه.

وذكر الخطيب عن السائب بن الأقرع: أنه كان جالساً في إيوان كسرى، فنظر إلى تمثالٍ يُشير بأصبعه إلى موضع، قال: فوَقع في روعي أنه يشير إلى كنزٍ، فاحتَفرتُ ذلك الموضع، فاستخرجتُ كنزاً عظيماً، فكتبتُ إلى عمر أقول: هذا شيءٌ أفاءه الله عليَّ دون الناس، فكتب إليَّ عمر: إنك أميرٌ من أُمراء المسلمين، فاقسمه بينهم[٣].

وحكى سيف عن عِصمة بن الحارث الضبِّي قال: خرجتُ فيمن خرج من المدائن نطلب الفُرسَ، فإذا حمَّارٌ معه حِمار، فلما رآني حثَّه حتى لحق بآخر قُدّامه فحثا حمارَيهما، فانتهيا إلى جدولٍ قد كُسر جسرُه، فأتيتُهما، فقتلتُ واحداً منهما وأفلت

(١) من قوله: إلا ما كان من علي... إلى هنا ليس في (أ) و(خ).

(٢) الأخبار الثلاثة في تاريخ الطبري ٤/ ٢٠-٢٣ ، والمنتظم ٤/ ٢٠٧-٢١٠ .

(٣) تاريخ بغداد ١/ ٢٠٣ ، والمنتظم ٤/ ٢١١.

الآخرُ، فرجعتُ إلى الحمارين، فأتيتُ بِهما صاحب الأَقباض، فنظر فيما على أحدهما، فإذا سَفَطان في أحدهما فرسٌ من ذهبٍ مُسْرَجٌ بسرجٍ من فضَّة، على ثَفَره ولَبَبِه الياقوتُ والزمرُّد، وعليه فارسٌ من فضَّةٍ مكلَّل بالجواهر، وإذا في الآخر ناقةٌ من فضَّة، عليها رجلٌ من ذهبٍ، مكلَّلٌ بالجواهر، كان كسرى يَضعُهما على إسطوانتي التاج الذي على رأسه.

وقال سيف، عن هبيرة بن الأشعث، عن أبي عُبيدة العَنبريّ قال: لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض، أقبل رجلٌ بحُقّ معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقالوا: ما رأينا مثل هذا قط، هل أخذتَ منه شيئاً؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتُكم به، فقالوا: مَن أنت؟ فقال: والله ما أنا بمُخبِركم لتَحمَدوني، ولكن أرضى بثواب الله، فأَتْبعوه رجلاً ليعرفه، فإذا هو عامر بن عبد قيس.

وقال سيف عن مُبشِّر بن الفُضَيل، عن جابر بن عبد الله قال: والله الذي لا إله إلا هو، ما اطَّلعنا على أحدٍ من أهل القادسية يريد الدنيا مع الآخرة، ولقد اتَّهمْنا ثلاثةَ نفرٍ: طُلَيحة بن خُوَيْلد، وعمرو بن معدي كرب، وقيس بن المكشوح، فإذا هم على خلاف ما ظننا من الأمانة والزُّهد[1].

وقعة جَلُولاء[2]

قال علماء السير: لما نزل سعد القصرَ الأبيض، واستوطن المسلمون المدائنَ، وبعث إلى عمر بالأخماس، بلغه أنَّ مِهْرانَ الرازيَّ ـ وكان من عُظماء الفرس ـ قد عسكر بجلُولاء وخندق، وأنَّ أهلَ الموصل قد عسكروا بتكريت، وحشد يَزدجرد الأعاجمَ عند مهران، وأقام هو بحُلوان، كتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه: أن سَرِّح هاشمَ بنَ عتبة، فسرَّحه في اثنيْ عشرَ ألفاً، وكان القعقاعُ بنُ عمرو على مُقدِّمته، وعلى ميمنته سِعْر[3] بن مالك، وعلى الميسرة أخوه عمرو بن مالك، وعلى ساقتِه عمرو بن مُرَّة الجُهنيّ.

---

(١) الأخبار الثلاثة في تاريخ الطبري ٤/ ١٨-٢٠ ، والمنتظم ٤/ ٢٠٨-٢٠٩ .

(٢) في هامش (خ) حاشية نصها: جلولاء قرية بفارس.

(٣) في النسخ والمنتظم ٤/ ٢١٣ : سعد، والمثبت من الطبري ٤/ ٢٤ ، والمؤتلف للدارقطني ١١٨٠ ، والإكمال ٤/ ٢٩٨-٢٩٩ .

وكانت الفُرسُ لما هربوا من المدائن ووصلوا إلى جَلُولاء قال بعضهم لبعضٍ: إنِ افترقتُم بعدها لم تجتمعوا أبداً، فاثبتوا على قتالهم، فإن كانت لنا فهو الذي نُريد، وإن كانت علينا كنّا قد قضينا ما علينا، فاجتمعوا وخندقوا عليهم، ويزدجرد مقيمٌ بحُلْوان يُمدُّهم بالأموال والرجال.

وجاءهم هاشمٌ في وجوه المهاجرين والأنصار، وسادات العرب وأشرافهم، وخرج إليهم مهران، واقتتلوا قتالاً عظيماً، وأرسل الله عليهم ريحاً سوداء أظلمت الدنيا، فتهافتوا في الخندق، وقُتل منهم يومئذٍ مئةُ ألفٍ، فجَلَّلَتِ القتلى الأرضَ والمحال والطرق، فسُمِّيت جَلُولاء لما جلَّلها من قتلاهم، وهربوا إلى حُلوان، فأدرك القعقاع مِهرانَ بخانقين فقتله، وبلغتِ الهزيمةَ يزدجرد فسار من حلوان نحو الجبل.

وأصاب خارجةُ بن الصَّلتِ يومئذ ناقةً من ذَهبٍ، عليها رجلٌ من ذهبٍ مُرَصَّع بالدرِّ والياقوت، فدفَعها إلى هاشم بن عُتبة، فبعث بها إلى سعد، وكان الهرمزانُ مع مهران، فقُتل مهران ونجا الهرمزان.

فصل في ذكر غنائم جَلُولاء

قال علماء السير: اقتسموا غنائمَ جَلُولاء على كل فارسٍ سبعة آلاف وتسعة من الدواب.

وحكى سيف عن الشعبيّ قال: اقتسم الناسُ فَيء جَلُولاء على ثلاثين ألف ألف، فكان الخُمْس ستةَ آلاف ألف.

قال سيف: فلما قدِموا به على عمر قال: والله لا يُجِنُّه سقفُ بيتٍ حتى أقسمَه، فبات عبدُ الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم في المسجد يَحرُسانه، فلما أصبح عمرُ جاء فكشف عنه الأَنْطاع، فلما نظر إلى ياقوتِه وجوهرِه ولُؤلؤِه وزبرجده بكى، فقال له ابن عوفٍ: ما يُبكيك يا أمير المؤمنين؟ والله إنه لمَوطنُ شكرٍ، فقال عمر: والله ما ذاك يُبكيني، ووالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، وما تحاسدوا إلا أُلْقِي بأسُهم بينهم، ثم قسمه بين الناس[1].

(١) انظر تاريخ الطبري ٤/ ٢٩-٣٠ ، والمنتظم ٤/ ٢١٣-٢١٤ .

وكان عبد الله بن عمر حاضراً وقعة جَلُولاء، فاشترى من الغنائم بأربعين ألفاً، فدعا عمر التُّجار فباعهم ذلك بأربع مئة ألف، فأعطى ابنه عبدَ الله ثمانين ألفاً، وقال: هذا ربحٌ كثير، وبعث بالباقي إلى سعدٍ فقال: اقسمه فيمن شهد الوقعة، ومَن كان قد مات فادفعه إلى وارثه، وقال لابنِه: يا عبد الله، لو أُمر بي إلى النّار أكنتَ تَفديني؟ قال: نعم، قال: هو ذاك[١].

قال هشام: وكان في سَبْي جَلُولاء أمهاتُ أولادٍ، منهنَّ[٢] أم عامر الشّعبي، وقعت إلى رجلٍ من بني عبس، فولدت منه ثم مات، فخلف عليها شراحيل، فأولدها الشعبي.

وكان بين وقعة جَلُولاء والمدائن تسعةُ أشهر؛ لأنها كانت في ذي القعدة. وقيل: كانت في سنة سبع عشرة، والأوّل أصحُّ[٣].

وقعة حُلْوان

حكى سيف بن عمر، عن محمد وطلحة والمهلَّب وعمرو وسعيد قالوا: كان عمر قد كتب إلى سعد: إنْ فتح اللهُ عليكم جَلُولاء فسَرِّح القعقاع بنَ عمرو في آثار القوم، حتى ينزلَ حُلوانَ، فيكون رِدْءاً للمسلمين، ويُحْرِزَ الله لكم سوادَكم، فلما فُتِحت جَلُولاء أقام بها هاشمُ بن عتبه، وسار القعقاعُ في آثارهم، فقتل مهران، وأفلت الهرمزان[٤]، وسبى وغنم، وسار يزدجرد إلى الرَّي والجبال، وخَلَّف بحُلْوان خيلاً عليها خسروشنوم، فخرج إلى القعقاع، فاقتتلوا، فقُتل خسروشنوم، وأقام القعقاعُ بحُلوان إلى أن عاد سعد إلى الكوفة، فلَحق به.

وقعة تكريت

قد ذكرنا أنَّ أهل الموصل اجتمعوا بها وخندقوا، وانضافت إليهم تغلبُ وإيادُ والنَّمرُ والشهارجة والقبائل، فأرسل إليهم سعدٌ عبدَ الله بن المعتِّم، فحاصرهم، وكانوا

(١) المنتظم ٤/ ٢١٤ .

(٢) في النسخ: منهم.

(٣) من قوله: وقعت إلى رجل... إلى هنا ليس في (أ) و(خ).

(٤) في الطبري ٤/ ٣٤ ، والمنتظم ٤/ ٢١٥ : الفيرزان.

جميعاً بتكريت[١]. ورأتِ الرومُ الغلبة من جانب المسلمين، فعزموا على الهربِ، وعلمت القبائلُ فأرسلت إلى عبد الله يسألونَه الصُّلْحَ على الروم فقال: حتى تُسلموا فأسلموا، فقال لهم: إذا سمعتُم التكبير فافتحوا الأبوابَ ففعلوا، ودخل وقتل الروم.

قصة قَرقيساء

كان بها جُموعٌ من الروم، فبعث إليها سعد عمر بنَ مالك بن عُتْبة بن نوفل بن عبد مناف، فاجتاز بهيت فافتتحها عَنوةً، ثم افتتح قَرْقيسياء عَنْوةً، وحجّ بالناس عمر.

فصل وفيها توفي

سعد بن عُبيد بن النعمان

ويقال له: سعد القاري، وكُنيتُه أبو زيدٍ الأنصاري، وهو من الطبقة الأولى من الأنصار، وهو ممَّن جمع القُرآن على عهد رسول الله ﷺ في قول الكوفيين. وقد حكاه ابن سعد[٢].

شهد بدراً وأُحداً والخندقَ والمشاهد كلَّها مع رسولِ الله ﷺ، وليس في الصحابة من يقال له سعدٌ القاري غيره[٣]. وكان حاضراً جسر أبي عُبيد[٤]، فكان من جملةِ المنهزمين إلى المدينة، فعاتبه عمر.

قال ابن سعدٍ بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: قال عمر بن الخطاب لسعدِ بن عُبيد لمّا انهزم يوم الجِسر[٥]: هل لك في الشام لعلَّك أن تَغسل عنك الهُنَيهة؟ قال: لا، بل الأرض التي فَرَرْتُ منها، والعدوُّ الذي هربتُ منه، أو الذي صنع بي ما صنع أولى، فخرج إلى العراق فاستُشهد وهو ابن أربعٍ وستين سنةً.

ويقال: إنه استُشهد في القادسية، فحكى ابن سعدٍ عن ابن أبي ليلى قال: خطب

---

(١) من قوله: فأرسل إليهم سعد... إلى هنا ليس في (أ) و(خ).

(٢) طبقات ابن سعد ٣/ ٤٢٣-٤٢٤ .

(٣) انظر تلقيح فهوم أهل الأثر ١٩٨ .

(٤) من قوله: وليس في الصحابة... إلى هنا ليس في (أ) و(خ).

(٥) من قوله: قال ابن سعد بإسناده... إلى هنا ليس في (أ) و(خ)، جاء بدله: فعاتبه عمر فقال له.

سعدٌ يوم القادسية فقال: إنا ملاقو العدوِّ غداً ومستشهدون، فلا تَغسلوا عنا دماً ولا نكفن إلا في ثوبٍ كان علينا، فاستُشهد[١].

وولدُه عُميرُ بن سعد صاحبُ عمر بن الخطاب، ولاه بعضَ بلاد الشام، وسنذكرُه. ولسعدٍ صحبةٌ وليس له رواية[٢].

وفيها تُوفيت

أُمُّ سُلَيم بنت مِلْحان

ابن خالد بن زيد بن حَرَام الأنصاريّةُ، وهي أمُّ أنس بن مالك.

واختلفوا في اسمها على أقوالٍ: أحدُها سَهْلةُ، والثاني رُمَيْلةُ، والثالث رُمَيْثة، والرابع أُنَيفة، حكاها ابن سعد[٣].

وأمُّها مُلَيْكةُ بنت مالك بن عدي، من بني النجّارِ، وأُمُّ سُليم أمُّ أنس بن مالك، قال: ويُقال: هي الغُمَيْصاء والرُّمَيْصاء.

وهذه أُمُّ سُليم[٤] تزوَّجها في الجاهليةِ مالكُ بن النَّضْر، فولدت له أنس بن مالكٍ، فقُتِل عنها مُشركاً، فخطبها أبو طلحة وكانت قد أسلمتْ، فقالت له: أنت مُشركٌ، فإن أسلمت فنعم.

وقد ذكر القصةَ ابنُ سعدٍ بإسناده عن إسحاق بن عبد الله، عن جدَّتِه أُمِّ سُليم أنها قالت: آمنتُ برسول الله ﷺ، قالت: فجاء أبو أنس وكان غائباً، فقال: أصبَوْتِ؟ قالت: ما صَبَوْتُ، ولكني آمنتُ بهذا الرجل، قال: فجعلت تُلقِّنُ أنساً وتشيرُ إليه: قل لا إله إلا الله، قل: أشهدُ أن محمداً رسول الله، ففعل، قال: يقول لها أبوه: لا تُفْسدي على ابني دينهُ، ولا تُفسدي عليَّ ابني، فتقول: إني لا أُفْسِدُه.

قال: فخرج مالك أبو أنسٍ، فلَقِيه عدوٌّ فقتله، فلما بلغها قَتْلُه قالت: لا جَرَمَ، لا

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٤٢٤.

(٢) انظر ترجمة سعد في الاستيعاب (٨٩٧)، والاستبصار ٢٨٠، والإصابة ٢/ ٣١.

(٣) في طبقاته ١٠/ ٣٩٥.

(٤) من قوله: واختلفوا في اسمها... إلى هنا ليس في (أ) و(خ).

أفطم أنساً حتى يَبلغ الثدي حُبًّا[١]، ولا أتزوَّجُ حتى يَأمُرني أنس[٢]، فخطبها أبو طلحة وهو مشرك، فأبت وقالت: أرأيتَ حجراً تعبدُه لا يضرُّكَ ولا ينفَعُك، أو خشبةً تأتي بها النجَّار فيَنجُرُها لك، هل تضرك أو تنفعك؟ قال: فوقع في قلبه ما قالت، فأتاها وقال: لقد وقع في قلبي ما قُلتِ، وآمن، قالت: فإني أتزوَّجُك، ولا آخذُ منك صَداقاً غير الإسلام، فكان صَدَاقها الإسلام.

وقد رواه أبو نُعيم، وفيه: فقالت لابنها أنس: يا أنسُ، زوِّج أبا طلحة فقد أسلم وذلك صَداقي، قال ثابت: فما سمعنا بمَهرٍ كان أكرمَ من مَهرِ أُمِّ سُليم، الإسلام[٣].

وقال ابن سعد: لا أتزوَّجُ حتى يَبلُغَ أنسٌ، ويجلسَ في المجالس، ويقول: جزى الله أُمي عني خيراً، لقد أحسنتْ وِلايتي، فقال لها أبو طلحة: فقد جلس أنسٌ في المجالس وتكلَّم[٤].

وقال ثابت: فتزوَّجها أبو طلحة، فوَلدت له عبد الله وأبا عُمير.

وقال ابن سعد[٥]: شهدت حُنيناً وهي حاملٌ بعبد الله بن أبي طلحة، وشهدت أُحداً قبل ذلك، فكانت تَسقي العَطشى، وتُداوي الجَرحى، وبيدها يوم أُحدٍ خَنْجر، وكذا يوم حنين.

وكان يدخل عليها رسول الله ﷺ ويَقيلُ عندها.

وقال ابن سعدٍ بإسناده عن إسحاق بن عبد الله، عن أنس بن مالك قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يَدخلُ بيتاً بالمدينة غير بيتِ أُمِّ سُليم، إلَّا على أزواجه، فقيل له، فقال: «أَرحَمُها، قُتل أخوها معي». وقد أخرجاه في الصّحيحين[٦].

وقيل: لأنها كانت خالتُه من الرَّضاع، وكان يدخلُ أيضاً على أُختها أُمِّ مِلحان.

---

(١) كذا في (ك)، وليس في (أ) و(خ)، وفي طبقات ابن سعد ١٠/ ٣٩٦ ، والسير ٢/ ٣٠٥ : حتى يدع الثدي حبًّا.

(٢) من قوله: فخطبها أبو طلحة... إلى هنا ليس في (أ) و(خ).

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٦٠ ، وثابت هو راوي الحديث عن أنس رضي الله عنه.

(٤) طبقات ابن سعد ١٠/ ٣٩٦.

(٥) من قوله: وقد رواه أبو نعيم.. إلى هنا ليس في (أ) و(خ)، والخبر في الطبقات ١٠/ ٣٩٧.

(٦) طبقات ابن سعد ١٠/ ٣٩٨ ، وصحيح البخاري (٢٨٤٤)، وصحيح مسلم (٢٤٥٥).

وقد ذكرنا في السيرة أن رسول الله ﷺ كان يَقيل في بيتها، فكانت تَبسطُ له نِطْعاً، فيَعرقُ فتأخذُ عَرَقه، فتجعله في الطِّيب[١].

وقد أخرجه ابنُ سعد أيضاً، فقال لها رسول الله ﷺ وهي تَمسحُ العرقَ: ما تَصنعين يا أُمَّ سُليم؟ فقالت: آخذُ هذا للبركة التي تخرجُ منك[٢].

وهي التي كان رسول الله ﷺ يُداعب وَلَدها فيقول: «أبا عُمير، ما فعل النُّغَيْرُ؟».

وقال أحمد: حدثنا هُشَيم، عن حُمَيد، عن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلتُ الجنَّةَ، فسمعتُ خَشْفة بين يديّ، فإذا هي الغُمَيْصاء بنت مِلْحان» أُمُّ أنس[٣]، والخَشفة: الحركةُ، وقيل: الصوتُ.

وقال البخاري بإسناده عن أنس بن مالك قال: اشتكى ابنٌ لأبي طلحة من أُمِّ سُلَيْم، وخرج أبو طلحة، وقُبِضَ الصبيّ، فلما رجع أبو طلحة قال: كيف ابني؟ فقالت: هو أسكَنُ مما كان، وقرَّبتْ إليه العَشاء فتَعشَّى، وأصاب منها، فقالت: وارِ الصبيَّ، فأخبر أبو طلحة رسولَ الله ﷺ فقال: «أَعْرستُما الليلة؟» فقال: نعم، قال: «اللهمَّ بارك لهما في ليلتهما»، فوَلَدت غُلاماً، فحمله إلى رسول الله ﷺ، فأخذ تَمراتٍ فمضغها، ثم جعلها في فَم الصبي، وحنّكه، وسمّاه عبد الله. أخرجاه في الصحيحين[٤].

وأخرجه أحمد في «المسند» عن أنسٍ وفيه: مات ابنٌ لأبي طلحةَ، فقالت أُمُّ سليم: لا تُحدِّثوا أبا طلحة حتى أكون أنا أُحدِّثُه، ثم قامت فتصنَّعت أحسن ما كانت تصنَّع قبل ذلك. وقرَّبت إليه عَشاءً، فأكل وأصابَ منها، فقالت له: أرأيتَ لو أنَّ قوماً أعاروا أهلَ بيتٍ عارِيَّةً ثم طلبوها منهم، أكان لهم أن يَمنعوهم منها؟ قال: لا ـ وفي روايةٍ: ألا أُعجبك من جيراننا؟ قال: ومالهم؟ قالت: أُعيروا عارِيَّةً، فلما طُلِبت منهم جَزعوا، فقال: بئس ما صنعوا ـ قالت: فاحتسب ابنَك فهو العارِيَّةُ، وفيه: أن رسول

(١) سلف في السيرة.

(٢) طبقات ابن سعد ١٠/٣٩٨ ، وما بعده منه.

(٣) مسند أحمد (١١٩٥٥). وأخرجه مسلم (٢٤٥٦).

(٤) صحيح البخاري (٥٤٧٠)، وصحيح مسلم (٢١٤٤).

الله لما حنَّكَ الغُلامَ جعل يَتلَمَّظُ، فقال رسول الله: «إنَّ الأنصارَ يُحبّون التمر»[١].

وقد أخرجه ابنُ سعدٍ بروايات كثيرةٍ، وقال أنس: لما قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ بارك لهما في ليلتهما» فلقد رأيتُ لهم في المسجد سبعةً يقرؤون القرآن[٢].

وقيل: إنَّ الولد الذي مات لأبي طلحة اسمُه حفص، وكان قد تَرَعْرَع.

وروت أُمُّ سُليم عن رسول الله ﷺ الحديث، فقال ابن سعدٍ بإسناده عن حسين بن أبي سفيان، عن أنس بن مالك[٣] قال: زار رسولُ الله ﷺ أُمَّ سليم، فصلَّى في بيتها صلاةً تطوُّعاً، فقال: «يا أُمَّ سليم، إذا صلَّيْتِ المكتوبةَ فقولي: سبحانَ الله عشراً، والحمد لله عشراً، والله أكبر عشراً، ثم سلي الله ماشئتِ، فإنَّه يُقال لك: نعم نعم نعم»[٤].

وأُمُّ سُليم هي أُختُ أمِّ حَرام بنت مِلْحان، وسنذكرُها في سنةِ ثمانٍ وعشرين.

وفي الصحابيات جماعةٌ يُقال لكلٍّ واحدةٍ منهن أُمَّ سليم، إحداهُنَّ هذه[٥].

فصل وفيها توفّيت[٦]

مارِيَة القِبطِيَة

أُمُّ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ. وقد ذكرنا أخبارها فيما تقدَّم[٧].

ولما مات رسولُ الله ﷺ كان أبو بكرٍ يُنْفِقُ عليها، وكذا عمر إلى حين ما فَرض لها، وكانت وفاتُها في المُحرَّم، وصلَّى عليها عمر، ودفنها في البقيعِ.

وذكرها ابن سعدٍ[٨] عن الواقدي فقال: بعث بها المُقَوْقِسُ صاحب الإسكندرية

---

(١) مسند أحمد (١٢٠٢٨).

(٢) طبقات ابن سعد ١٠/ ٤٠١-٤٠٤.

(٣) من قوله وقال ابن سعد بإسناده عن إسحاق بن عبد الله.. إلى هنا ليس في (أ) و(خ).

(٤) طبقات ابن سعد ١٠/ ٣٩٧.

(٥) انظر في ترجمة أم سليم الاستيعاب (٣٥٢١)، والاستبصار ٣٦، والمنتظم ٤/ ٢١٦، وتهذيب الكمال (٨٥٧٨) وفروعه، والإصابة ٤/ ٣٦١.

(٦) من قوله: وأم سليم هي أخت أم حرام... إلى هنا ليس في (أ) و(خ).

(٧) سلف في السيرة.

(٨) من هنا إلى نهاية السنة ليس في (أ) و(خ).

إلى رسول الله ﷺ في سنة سبعٍ من الهجرة، وبأُختها سيرين، وبألف مثقال ذَهبٍ، وبالدُّلْدُلِ واليعفور[١] وعشرين ثوباً ليِّناً. وذكر ما ذكرناه فيما تقدَّم، وحديث الخصيّ[٢].

قال: وقال الواقدي: كانت مارية من حَفْن، من كُورة أَنْصِنا، وقيل: هي بنتُ ملك مصر.

وقال ابن سعدٍ بإسناده عن ابن كعب بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «استوصوا بالقِبطِ خيراً، فإن لهم ذِمَّةً ورحماً». قال: ورَحمهم أن أم إسماعيل بن إبراهيم [منهم]، وأمُّ إبراهيم ابن رسول الله منهم[٣].

(١) في طبقات ابن سعد ١٠/ ٢٠١ : وبغلته الدلدل، وحماره عفير، ويقال يعفور.

(٢) سلف في السيرة.

(٣) طبقات ابن سعد ١٠/ ٢٠٣ ، وانظر في ترجمة مارية المعارف ١٤٣ ، والاستيعاب (٣٤٦٤)، والمنتظم ٤/ ٢١٨ ، والتبيين ٨٦ ، والإصابة ٤/ ٤٠٤-٤٠٥ .

obeikandl.com